سلوكيات وطباع الإبل

علي بن عبد العزيز السقامي

تتمتع الإبل بسلوك عجيب وطبع غريب، قلما يوجد في حيوان آخر، فتارة تحدث صوتاً يدل على طبع أو صفة معينة، وتارة تقوم برد فعل هو انعكاس لطبع وسلوك معين، ومن يعيش معها ويقف على أحوالها يجد من عجائبها ما يذهل المدرك ناهيك عن الجاهل بخفاياها وتفاصيل سيرها وحركتها وسنورد هنا بعضاً من تلك السلوكيات وما تنطوي عليه من أسرار ونوادر سلوكية، قد لا تتوفر في مخلوق حيواني آخر، ومن لطائف الجمل وعجائبه التي لا تنقضي أنه حيوان وديع، سهل الانقياد، حيث يستطيع طفل صغير أن يقود جملاً ضخماً أو يركبه في سفر أو سباق.

يتناول هذا المقال أبرز سلوكيات الإبل المسجلة خاصة التي سجلتها كتب التراث العربي وأشار إليها مربو الإبل.

العدوانية

تتجاوب الإبل مع التعامل الطيب، كما أنها تستجيب للرعاية والمداعبة من قبل صاحبها، ولكنها قد تتهيج وتخشن طباعها ويتغير سلوكها إذا استوحشت لقلة الاهتمام بها، أو لأنها أصبحت إبل سائبة، أو عوملت بقسوة وغلظة، يتصف سلوك الإبل في موسم التلقيح ـ خاصة الذكور ـ بالهيجان وتصبح عدوانية، وقد تهاجم البشر أو الحيوانات الأخرى، وتصبح شرسة وخطرة حتى تنتهي هذه الفترة.

الحقد والغيرة والانتقام

تعد الإبل من الحيوانات الغيورة على إناثها، فعلى سبيل المثال لو قدم في موسم الضراب (التزاوج) إلى القطيع جمل غريب فإن الفحل الموجود فيه يقوم بمهاجمته وطرده، ولا يدعه يقترب من إناثه ، لذا ضربت العرب المثل فقالوا : "أغير من جمل" كما تتمتع الجمال بغريزة الانتقام، فلا تنسى من يؤذيها، ولذلك تظل حاقدة على المسيء لها حتى تنتقم منه، ولو بعد زمن طويل، لذا تقول العرب في بعض أمثالها: "أحقد من جمل" ويقول الشاعر الشعبي إبراهيم بن جعثين:

وعاشرها عدوك ما يودك

ترى قلبه عليك اله اشتعالي

ولو يعطيك لين من لسانه

فهو مثل الحقود من الجمال

وقد أورد الحبردي قصة مشهورة ذكر فيها أن رجلاً ضرب جملاً هائجاً لطرده حتى لا يلقح بعض النياق المجاسير، وبعد مرور عامين نسي الرجل ما فعله به فركب عليه رديفاً مع صاحب الجمل ، وعند نزوله التفت إليه الجمل وأطبق فكيه على قدمه وأخذ يجري به ليبرك عليه ويسحقه بزوره. ولكن صاحب الجمل لحق به وضربه بخنجر كان معه عدة ضربات، فلفظ الجمل قدم الرجل بعد أن طحنها، ومما لاشك فيه أن الإبل تعلم أن سلاحها في أنيابها وقوائمها وفي قوة زورها عندما تبرك على شيء، وربما يعد الرمح بالرجل والهبد باليدين سلاحاً فتاكاً من أسلحتها تستغلها في الانتقام.

الخوف

الإبل حيوانات حذرة، تسهل إخافتها، فيكفي لذلك الوثوب أمامها فجأة، أو اقتراب سيارة منها، أو حتى مجرد سقوط متاع (أغراض) من على ظهورها ،وفي هذا يضرب المثل العربي «ضرب على جهازه» وأصل المثل أن الجمل إذا سقط عن ظهره القتب بأدواته ووقع بين قوائمه فإنه ينفر منه ويشرد عنه ، كما أن احساسها بأية حركة غير عادية يقوم بها الراكب تؤدي إلى إخافتها، وقد تخاف من شعر حاجبيها، وفي هذا ضربت العرب المثل فتقول: «كل أزب تفور» والأزب من الإبل هو الذي يكثر شعر حاجبيه، ويكون الأزب نفوراً لأن الريح تحرك شعر حاجبيه، فيظن أن أمامه شيئاً فينفر.

ويذكر الحتي أن الجمل جبان أشد الجبن، ويخاف ـ مع عظم حجمه ـ من

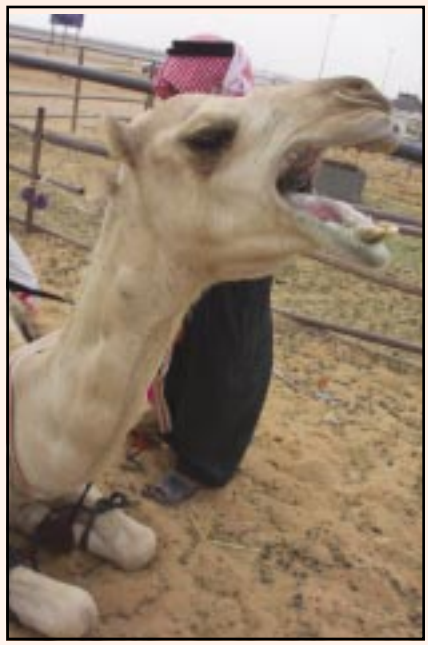

● التعبير عن الخوف والغضب.

أصغر الحيوانات، وقد إعتاد البدو أن يقعقوا في شنة ـ ما يبس من أوعية الأسقية المصنوعة من الجلد ـ إذا أرادوا إزعاجه أو إخافته، فيهرب من صوتها، ولذلك قال النابغة الذبياني:

كانك من جمال بني أقيش

يقعقع خلف رجليه بشن

ومن المشاهد أن الإبل أكثر ما تخاف حينما تكون مطلقة، ولاسيما إذا إنقطعت عن القطيع، أو شعرت بانفرادها وهي سارحة ترعى، فتراها قلقة مضطربة، وقد ورد في الشعر العربي القديم إشارات تدل على خوف الجمل، منها قول علقمة بن عبدة يصف ناقة:

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامرة

كما توجس طاوي الكشح موشوم

ويقصد بذلك أن الناقة تنظر شزراً (بمؤخرة العين) إلى السوط الذي سيقع عليها، دون أن ترتاح أو تجتر بل عاضة على أنيابها كأنها ثور وحشي يقف متحفزاً.

ومع كل هذا فقد لوحظ أن الإبل لا تضطرب أثناء استخدامها في الحروب عند إطلاق النار من الراكب عليها.

الانقياد والطاعة

تتميز الإبل عن مثيلاتها من الحيوانات الأليفة أو المستأنسة الأخرى بأنها سريعة التعلم والتعود، وسهلة الانقياد والتوجيه، مرهفة الإحساس، وفية ومطيعة لصاحبها، تأتمر بأمره، إلا أنها ترفض السير في القافلة إذا كانت مواليدها مربوطة لشدة حرصها عليها، ومن دلائل سرعة تعلم الناقة وتعودها أنها لا تبرك أو تنوخ أو تقف إلا عندما تسمع صيحات صاحبها التي اعتادت عليها تطلب منها ذلك.

يقول الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى: "الإبل من الحيوانات العجيبة، وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها، وهو حيوان عظيم الجسم، سريع الانقياد، ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به، وتأخذ زمامه فأرة فتذهب به إلى حيث شاءت"، ويقول عباس بن مرداس في خضوع الجمل وسهولة انقياده، بالرغم من ضخامة جسمه:

ترى الرجل النحيف فتزدريه

وفي أثوابه أسد هصور

وقد عظم البعير بغير لب

فلم تستغن بالعظم البعير

يصرفه الصبي بكل وجه

ويحسبه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوي

فلا غير لديه ولا نكير.

الذكاء وقوة الذاكرة

تتمتع الإبل بذاكرة قوية، فهي تستطيع معرفة الأماكن التي شربت منها ـ ولو مرة واحدة ـ والاستدلال عليها، والسير إليها، حتى أن الرعاة إذا لم يعرفوا الطريق وتاهوا في الصحاري والمفازات الواسعة المهلكة، فإنهم يتركون إبلهم تسير لوحدها، وهي بما وهبها الله من إحساس عجيب تجاه الأماكن تقوم بإرشادهم وتحديد وجهاتهم الصحيحة إلى مساكنهم، كما يمكنها التعرف على مكان إقامتها حتى ولو داهمها الضباب ـ مثلاً ـ فإنها تستطيع الوصول إلى هدفها دون أن تظل، ولذلك تقول العرب: "أهدى من بعير"، ونظراً لحساسيتها الشديدة فإنها تستطيع الإستدلال على مصادر المياه حتى في الليالي العاصفة الحالكة الظلمة، لكن الغريب أنها تضل طريقها بعض الأحيان خصوصاً إلى قلعة ريدا في شمال الربع الخالي، وهو أمر لا تفسير له.

تتمتع الإبل بقدرة عجيبة على تحديد مواقع هطول الأمطار عند رؤيتها للبرق، وتحديد أماكن وجود العشب (المراعي)، وتتوجه إليها، وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أن الإبل تستطيع معرفة ما يضرها وما ينفعها من النباتات حين تدخل الروضات والفياض، وما هو غذاء نافع لها، وما هو سم خطر عليها، و ما يخرج من الحالين جميعاً، وذكر أن الإبل لا تقرب ما يتغذى به غيرها من الحيوانات، وإن كان ليس بقاتل ولا معطب. وتستطيع التعرف على النباتات الملائمة لتغذيتها إما برؤية العين دون الشم، أو بالشم فقط.

ومن ذكاء الإبل أنها تعرف الحركات والإشارات التي تصدر من صاحبها، كما يدل هروبها وفرارها بعيداً ـ إذا ما كانت طليقة عندما تسمع صوت إطلاق النار أو أي حركة أو جلبة ـ على حدوث معركة بين

● الإبل سهلة الإنقياد والتوجيه.

أصحابها وآخرين على ذكائها. ومما يدل على ذكائها معوفتها للحداء، وهو الصوت الذي يطلقه الراعي أو المالك إلى الإبل لتتبعه إلى المرعى أو العودة منه أو لدعوتها للشرب، ولكل صاحب إبل حداء مميز تعرف به صاحبها وما يريده منها، ومن شدة ذكاء الجمل الفائق أنه يعرف مكان ولادته بكل دقة حتى لو مرت سنين طويلة على ولادته، ومع ذلك يرى الحتي أن الإبل أقل ذكاءً من الكلب والحصان والبغل وغيرها من الحيوانات الأليفة.

يذكر النويري في كتابه «نهاية الأرب» أن الإبل تهتدي بالنجوم في معرفة الطويق، ولذلك تضرب العرب بها المثل في الإهتداء فتقول : «أهدى من بعير»، أما الشعر العربي فيحتوي على العديد من الأبيات التي تصف ذكاء الإبل وقدرتها على معرفة الطريق، ومنها قول الحطيئة:

إذا آنست وقعاً من السوط عارضت

به الجور حتى يستقيم ضحى الغد

ويعني الشاعر بهذا البيت أن الناقة إذا حاد بها راكبها عن الطريق الصحيح فإنها تذهب به خلاف ذلك حتى تغلبه فتسير به إلى الطريق الصحيح.

ويقول السفاح بن بكير اليربوعي :

كما استحنت بكرة واله

حنت حنيناً ودعاها النزاع

وفيه يشير الشاعر إلى أن البكرة توله (تاله) وتحن إلى مكانها وتظهر الجزع والتململ .

عاطفة الأمومة

تحرص الناقة على مولودها حرصاً شديداً، فهي ترعاه منذ ولادته إلى أن يصبح قادراً على الاعتماد على نفسه، فإذا فقدت الناقة وليدها فإنها لاتهدأ، بل تظل متنقلة من مكان إلى آخر للبحث عنه حتى تجده.

وهناك قصص قريبة من الأذهان تدل على عاطفة الأمومة عند الإبل، ومنها قصة خلوج ابن الرومي، وهو تاجر إبل مشهور، وكانت عنده ناقة نجيبة ثمينة، فدخل يوماً إلى حوش الإبل ومعه ابن له صغير في الثالثة من عمره فرمحته الناقة فمات في الحال. فغم الرجل وحزن على ابنه حزناً شديداً، ولم يهن عليه التفريط فيها لنجابتها وقيمتها عنده، فتركها حتى لقحت، وعندما ولدت أخذ ولدها وذبحه أمام عينيها، فحنت وحزنت وبركت وتمرغت وصارت تضرب بجسمها الأرض، وبقيت مدة طويلة لا تأكل ولا تشرب حتى هزلت وكادت تموت، وبعد فترة لقحت مرة أخرى، ففعل بها مثلما فعل في الأولى، ففعلت أكثر مما فعلت في المرة الأولى، ثم تعزت ولقحت للمرة الثالثة، فلما رأت ذلك وقفت على رجليها وحنت حنة عميقة بصوت مرتفع وضربت بنحرها الأرض وخرت ميتة، وعندما تم شق جوفها وجد أن قلبها قد انفجر وتمزق تمزقاً، وعلى الرغم من المبالغة الظاهرة في هذه القصة من الناحية العلمية، إلا أن قصة هذه الناقة اشتهرت شهرة عظيمة وأشار إلى حنتها الشعراء، فقال فهاد بن مسعر العاصمي:

ياونة ونيتها يابن نصار

ما ونته قبلي خلوج ابن رومي

وقال عبدالرحمن بن ناصر اللحيدان:

لي يا خلف لي يا ذلول ابن رومي

أتعبتني وأنا على الغالي انخاك

دنياك هذي بالتفاريق تومي

صبور ما تمضي سوى هاك أوهاك

وتظهر عاطفة الأمومة عند الإبل عندما يراد حلب الناقة، فهي لا تدر اللبن مثل الأغنام والأبقار دون أن يكون وليدها هو البادئ بلمس حلمات ضرعها، أي أن يقوم الحوار في البداية بتحنينها، ثم يبعده الراعي، أو يترك له خلفاً واحداً فقط عندما تبدأ الناقة بالإدرار، وقد تدر الناقة اللبن دون أن يقوم وليدها بتحنينها إذا كانت مسوحاً أو مريا، ويطلق هذا اللفظ في بادية الجزيرة العربية على النياق التي تدر اللبن

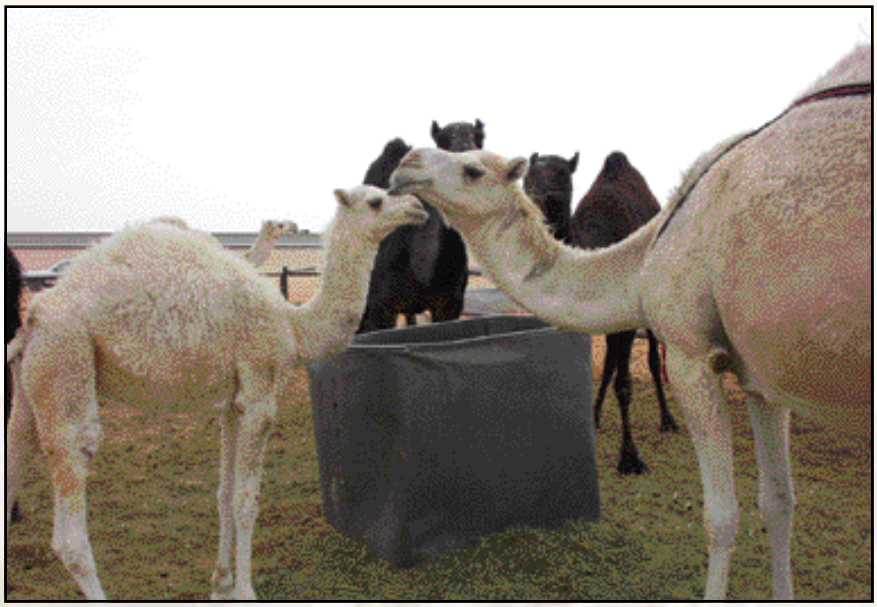

● عاطفة الأمومة عند الإبل.

● مجموعة من الإبل في إسترخاء كامل.

بمسح الراعي على الضرع، لذلك يصطفى بعض الرعاة عدداً محدوداً من نوقه ليقوم بتعويدهن على إدرار اللبن دون الحاجة إلى وجود حوار .

ويحدث في بعض الأحيان أن تلد الناقة ويموت حوارها بعد فترة، فيقوم الراعي بسلخ جلد الحوار، وحشوه ببعض الأعشاب أو الحطب، أي أنه يقوم بتحنيط الجلد ثم حشوه، ويسمى (البو) فيمرر على الناقة لتشمه، فتقوم بإدرار اللبن.

الوفاء

الإبل من أكثر الحيوانات المستأنسة وفاءً لصاحبها، فمن وفائها المشاهد كثيراً أنه إثناء هطول الإمطار تقوم بحماية راعيها من التأذي بالمطر، حيث تقوم بفتح قوائمها الأمامية زيادة عما هو معتاد لتمكين الراعي من الدخول تحتها، مما يؤدى إلى وقايته من زخات المطر والبرد .

الغزل

تحصل للإبل في فترة الشبق تغيرات سلوكية وهرمونية محدودة، ففي الجمال يظهر عليها خشونة الطبع والعدوانية، وطرد الجمال الغريبة، وتملك المنطقة أو البقعة، وتتغير طباع الجمال(الفحل) من حيوان انقيادي ومسالم إلى حيوان عنيد وخشن الطباع وهجومي.

يبدأ هيجان الجمل في أواخر فصل الخريف وبداية الشتاء، حيث يسوء خلقه، ويعلو هديره، ويكثر رغاؤه، وتضرس أنيابه، وتزداد قوته، ويخرج زبده من فمه، ويفرز سائل من غدة الرائحة، وتخرج اللهاة من فمه مع أصوات رغائية عالية، ويثني رأسه إلى الوراء ويسنده على الرقبة، وذلك لإظهار شعر الحنك الغزير، ويفتح ساقيه، ويهز ذيله بعنف، وبشكل متكرر مع نثر البول على الظهر والذيل، كما أنه يفقد شهيته للأكل، ويكره اقتراب الإنسان أو الجمال الأخرى منه، وتتصارع الجمال فيما بينها، وقد تقتل بعضها وذلك لأن كلاً منها يغار على إناثه، إذا لم يتدخل الرعاة في إبعاد بعضها عن بعض، ويعرف عن الجمل أنه يقاتل حتى الموت.

كما يحدث للأنثى بعض التغيرات السلوكية إلا إنها أقل وطأة منها في الذكر خلال موسم التناسل، حيث تكون مضطربة وتنعزل عن بقية القطيع، وتقوم برفع الذيل للأعلى مع الرغاء والاحتكاك بمؤخرتها بالجمل، والبروك أمام الفحل والتبول المتكرر المتقطع.

تستجيب الناقة ـ عادة ـ للفحل فتبرك أمامه عندما يقترب منها، وإذا قاومت يقوم بوضع رقبته على رقبتها أو على ظهرها ويضغط عليها إلى أسفل بجميع ثقله، وإذا لم تستجب له، فإنه يقوم بعضها من عند مفاصل العرقوب، مما يمنعها من المشي ويضطرها إلى البروك على الأرض، وأحياناً يقوم الراعي بمساعدة الجمل، وذلك بتبريك الناقة له إذا خاف عليها من الجمل أن يلحق بها ضرر، وبعد الإنتهاء من عملية التلقيح يتنحى الجمل جانباً قبل أن يستطيع الوقوف على قوائمه. وبعد إتمام عملية التزاوج (التلقيح) يعود كل من الجمل والناقة إلى طبعهما الهادي وسلاسة المزاج، وسهولة الإنقياد في المواسم الأخرى(خارج موسم التلقيح).

الحنين

تحن الإبل وتشتاق إلى مراتعها الأصلية مثل حنين الإنسان إلى وطنه وبلده، وقد حفل الشعر العربي بصور شتى من هذا الحنين، فهذا الشاعر المتلمس (جرير بن العزى) يسمع شكوى ناقته وحنينها الشديد إلى مرا تعها الأولى، ولكن لم يكن باستطاعته أن يلبي رغبتها، فقد طرده عمر بن هند وحرم عليه العودة إلى موطنه، ولا ريب أن حنين الشاعر إلى موطنه يضاهي حنين ناقته، غير أنه يحاول من خلال مناجاته لها، أن يخفف ما انتابه من ألم البعد ولوعة الفراق، حيث قال:ـ

حنت قلوصي بها، والليل مطـــــرق
عد الهدوء، فشاقتها النواقيس
معقولة ينظر التشريق راكبـــــها
أنها من هوى للرمل، مسلوس
أني طربت ولم تلحي علـــــى طرب
دون إلفك آمرات أما ليس
حنت قلوصي إلى النخلة القصوى
فقلت لها حجر، حرام، ألا تلك الدهاريس

المراجع

١ – موسوعة الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية.
٢ – الإبل أسرار وإعجاز.
٣ – أخبار الإبل عند العرب بين القديم والحديث.